يوسف إدريس

المادح

مجموعة قصصية

مكتبة علي بن صالح الرقمية

يوسف إدريس

المارد

مجموعة قصصية

1969

كتب أونلاين
كتب للجميع

مكتبة علي بن صالح الرقمية

المارد

كنت أعتقد أني عرفت كل شيء عن نفسي؛ دوافعي الخفية وأسباب نزواتي، كمية شجاعتي وما فيَّ من ضعف، ما أحبه وما أكرهه، وما أحتار بين رغبتي فيه وبغضي له؛ إلى أن حدث ذلك الحادث الذي أكد لي بعده أني مثل غيري، لا تتعدى معرفتي لنفسي طبقة القشور، الحادث وقع من زمن، منذ أكثر من عام، ولقد رويته في كل مناسبة للأهل والأصدقاء حتى التصقت تفاصيله بذاكرتي، وأصبح الحادث نفسه جزءًا لا يتجزأ من تفكيري ومن نفسي.

أنا ممن يحبون المشي من أجل المشي، وغالبًا ما أفضِّله على الركوب لأسباب كثيرة لا أعرف معظمها، ولكن المؤكد أني أستمتع به. إنك وأنت راكب الأوتوبيس تصبح جزءًا من الأوتوبيس وازدحامه وحديده وخشبه، وأنت في سيارتك مجرد سائق ومسيطر على آلات. فقط وأنت سائر، وأنت تنقل القدم وتتبعها بالأخرى، وأنت تتحرك فيتحرك معك كل جزء من جسدك، أنت حينئذٍ تحس، أكثر من أي وقت آخر، أنك نفسك، أنك إنسان، أنك شباب، أو ربما أكثر شبابًا، أنك حر تقف أو تمشي أو تسرع، أنك حرٌّ أنت الذي تتحرك، أنك كائن حي وليست آلة أخرى هي التي تُحركك؛ تحس بفرحتك أنك على الأقل قادر على السير، إحساس لا يقدره حق قدره إلا من اضطُر يومًا ما أن يرقد أو يُحرَّم عليه المسير. لهذه الأسباب العامة أحب المشي كما قلت، ولسبب آخر خاص بي؛ ذلك أني أحب أن أسرح وأفكر وأحلم، ولا يحلو لي أن أصنع هذا كله إلا وأنا سائر، وكأن مع المشي تتحرك أجهزة الخيال عندي وتمضي هي الأخرى تسير في أي اتجاه شاءت. ولأن هذا السبب الأخير سبب خطير في الوقت نفسه؛ إذ ليس أخطر من السرحان أثناء السير؛ فأنا إذا مشيت أراعي دائمًا أن ألازم الرصيف، وأغالي إلى درجة أكاد أسير معها لصق الحائط، ومتخذًا هذا الاحتياط الأكيد لا يصبح عليَّ لكي أحلم وأفكر كما

أشاء إلا أن أتفادى المارَّة فقط، وتلك مهمة يؤديها عقلي تلقائيًّا، وفي نفس الوقت الذي يقوم فيه جزؤه الأكبر بالتفكير كما يشاء.

باستطاعتكم إذن أن تتصوروا مبلغ دهشتي حين أكون سائرًا على كورنيش النيل بعد ظهر يوم، متخذًا نفس الاحتياطات السابقة، وإذ بي أجد نفسي وجهًا لوجه أمام عربة من عربات نصف النقل المخصَّصة لتعليم السائقين في الجيش، والحقيقة ليس بالضبط وجهًا لوجه، إنما الوضع حدث كالآتي؛ كان السائق يسير بسرعة كبيرة، وفجأة انحرفت منه العربة انحرافًا حادًّا لم يعرف سببه، وإن كان السائق قد ذكر أن سببه انفلات في تروس عجلة القيادة، وكانت نتيجة السرعة الكبيرة والانحراف الحاد أن انقلبت العربة. ولم تنقلب مرة واحدة، ولكنها دخلت في سلسلة من الانقلابات كان مفروضًا أن يستقر كل انقلاب منها فوق جسدي ويحطمه. ولم يكن هذا مفروضًا فقط، ولكنه كان شيئًا مؤكدًا مفروغًا منه، تأكُّدك من إصابة شخص تطلق عليه النار من بعد متر. أما كيف لم يحدث هذا، وكيف أني لا زلت على قيد الحياة أتحدث وأروي القصة، فهو ما سأحاول شرحه، وأرجو أن أنجح؛ فالمهمة ليست سهلة كما قد تظنون، وأنا نفسي لا زلت لا أصدقها.

طبعًا حالَ عقلي المشغول بالخيالات والأحلام بيني وبين أن أدرك أن هناك عربة جيش تسير بسرعة مجنونة في الطريق؛ فالمفروض أن تسير في الطريق عربات، ومع أن المفروض ألا تسير بسرعة مجنونة، إلا أنه ليس كل مفروض مرغوبًا أو مطاعًا، ما علينا. انحرفت العربة، وانقلبت انقلابها الأول على بعد كبير مني، على بعد خمسين مترًا أو أكثر، في هذه اللحظة فقط، أي بعد انقلابها الأول، بدأت أتنبه وأدرك أن ثَمة حادثًا قد وقع، وأن عربة انقلبت، وأن بيني وبينها مسافة، وكان لا يمكن أن أتصور بأي حال أنه رغم كل هذه المسافة من الممكن أن تصبح العربة، على بعد ثانية أو أقل من ثانية، أمامي مباشرة، ولكن هذا بالضبط ما حدث؛ فما كدت أراها مقلوبة على جنبها، حتى رأيتها تقفز مرة أخرى في الهواء، وسمعت صراخ المارَّة: ابعد ... ابعد ... حاسب حاسب.

لم أعرف أني المقصود بالصراخ إلا في اللحظة التالية، ولكن قبل الصراخ، قبله بجزء على ألف من الثانية، كان شيء ما في نفسي قد دق ونبهني إلى أني سأواجه حالًا خطرًا قاتلًا ساحقًا. من الصعب عليَّ جدًّا أن أصوِّر الموقف؛ فلقد حدث كله في لمحة، والآن، وأنا جالس إلى مكتبي أقيس الزمن بمقياسه الطبيعي، لا أستطيع أن أتخيل كيف في مثل تلك الومضات الخاطفة، تحدث كل تلك الأشياء، وأفكر في كل تلك الاحتمالات، وأتذكر أثناءها ما لا يمكن تذكره، حواسي كانت تؤكد لي أني في أمان، وأن الخمسين مترًا مسافة لا يمكن أن تقطعها عربة مقلوبة على عجلاتها، بل حتى لو كانت تسير على عجلاتها لأخذ الأمر بعض الوقت كي تصلني؛ لهذا حين سمعت الأصوات تُحذرني، وتلفَّتُّ تلفتًا سريعًا، ولكنه تلفُّت المطمئن على أية حال، وجدت أن التفاتي جاء متأخرًا؛ فالعربة في انقلاباتها الصاعقة كانت قد وصلتني، وأصبح ما بينها وبيني لا يزيد عن المتر، ولكنه متر يتناقص بسرعة مذهلة؛ إذ العربة كانت مرتكزة على حدها، وفي طريقها للانقلاب ناحيتي والانقضاض عليَّ. ومن سرعة التمطي والتثاؤب، سرعة السلحفاة التي كان عقلي يجتر بها خواطره، وجدت سرعته تقفز إليَّ أسرع من الضوء تحاول أن تجد الحل. ومع هذا، ومع هذه السرعة الخارقة، كان الخطر أسرع. وهكذا وجدت نفسي عاجزًا عن التفكير بالمرة، فلا وقت هناك ولا قدرة، وحتى لو كانت يد رحيمة قد امتدت من السماء وأمسكت العربة ومنعتها من السقوط فوقي لدقيقة مثلًا أو لدقيقتين لكي تتاح لي فرصة التفكير، فماذا كان باستطاعتي أن أفكر فيه، وأي تصرف كان يمكنني عمله؟ ماذا تفعل والخطر أسرع من قدرتك على القفز والجري إذا أردت الجري، وحتى من طيرانك إذا أوتيت أجنحة لتطير. ساعات بأكملها جلستها وحدي أتذكر وأعتصر عقلي كي أعرف بالضبط ماذا فعلت وكيف دون جدوى؛ فنحن لا ندرك أننا فكرنا إلا إذا كنا قد فكرنا بعقولنا، ولا نعي بتصرفاتنا إلا إذا كنا قد تصرفنا بإرادتنا وبأمر من ذلك الجهاز الجبار الرابض في جماجمنا. أمَا وقد قلت لكم إن عقلي كان قد توقف على التفكير، كالآلة حين تُحمَّل فوق طاقتها فتتوقف عن الدوران، أمَا والذي فكَّر وتصرَّف لم يكن هو ذلك العقل الواعي الإرادي الذي غاب

عن وعيه وإرادته، أمَا وثَمة مصدر آخر هو الذي دبَّر وأراد ونفّذ، فكيف يمكنني أن أعرف أو أتذكر؟! كل ما حدث وكل ما أذكره هو مشهد العربة، أو على وجه أصح الجزء الأسفل من العربة وهو يتهاوى بسرعة لينقضَّ عليَّ، ثم إحساسي بأني أتحرك خفيفًا في اتجاه مغاير، ثم من جديد مشهد آخر للعربة بجزئها الأعلى هذه المرة وهي تنقض وأنا أتحرك. كم مرة حدث هذا؟ لا أذكر، ربما ثلاثة، ربما مائة، لا أعرف.

المشهد التالي الذي أذكره كنت راقدًا فيه على جنبي، وبجواري تمامًا، وعلى بعد عدة سنتيمترات، ترقد العربة على جنبها أيضًا، وكلانا بغير حَراك، ولكن العربة لم تلبث أن غابت عن ناظري، وتولَّت حجبَها حلقةٌ مُحكَمة من الأقدام والسيقان العارية، وبنطلونات لرجال وسيدات وأطفال. ورفعت عيني لأجد حلقةً مُحكَمة عُليا أخرى من الرءوس والعيون. ورغم آلاف الكلمات المتناثرة من عشرات الأفواه، ورغم الأيدي التي امتدت تتحسس أذرعي وأرجلي وتسألني عن نفسي، كنت أنا بعيدًا عن هذا كله، في لحظة صفاء ذهني ما شعرت بمثلها في حياتي؛ وكأن عقلي كان كشكولًا مملوءًا بالمسودات والصور والبقع والكتابات، ثم حدث ما محا منه كل هذا، وأصبح نظيفًا ناصع البياض لتوِّي تسلَّمته من مخازن المدرسة. وحين بدأت أفهم الكلمات وأعرف قائليها وجدتها تأتيني في نبرات وأصوات واضحة قوية، وكأنها أول ما يُدوَّن في صفحة ذاكرتي.

ووُلد من جديد تعبيرٌ أدبي يُستخدم في هذه الأحوال، ولكني فعلًا كنت كالمولود الجديد، كائن وكأنْ لا صلة له مطلقًا بمن كانه منذ دقائق معدودات. لا، لم أكن قد فقدت ذاكرتي أو نسيت شيئًا، إذ ما لبثت أن بدأت أسترجع بصورة غير مركزة أولَ الأمر، ثم على وجه أكثر تركيزًا ما حدث، وعرفت هذا حين مرت لحظة الصفاء الرائعة. ليتها ما مرت ومضيت فيها إلى الأبد. أفقت وتمالكت نفسي، وبدأت أسأل عما حدث، وأغرب شيء أن الناس كلهم أجمعوا على أنهم بلا استثناء كانوا قد تأكدوا تمامًا أني انتهيت، وأنهم في طريقهم لرؤية جثة مشوَّهة؛ إذ مسألة مصرعي كانت أمرًا مفروغًا منه، ثم بدأ بعضهم يقطع روايته ويسألني إن كنت

رياضيًّا أو إذا كنت في فترة ما من حياتي قد زاولت رياضة القفز. وبالطبع نفيت، فلست رياضيًّا قط، ولكن من يوم أن قال لي مدرس الرياضة البدنية رأيه بصراحة فيَّ وفي طريقة لعبي، وفصلني من «القسم المخصوص» أيام كان في المدارس قسم مخصوص للرياضة، ومن يومها، وبيني وبين الرياضة بكافة أنواعها ما صنع الحداد. يصدقني الناس. وحين مضوا يؤكدون أني لا بد رياضي عتيد، وحينئذٍ سألت البقية الباقية من الحلقة التي كان كثير من أفرادها قد تسرَّبوا ومضوا إلى حال سبيلهم، ولم يبقَ منهم إلا كل فاضٍ متلكئ محب للاستطلاع، سألتهم لماذا يذكرون مسألة الرياضة والقفز، ولم أعرف السبب إلا حين أوقفوني وأروني العلامات التي خلَّفتها العربة في انقلاباتها الكثيرة. كان ما بين العلامة والعلامة لا يقل عن الأربعة أو الخمسة أمتار. وحسبوا أني أسخر، وكانوا يزدادون استنكارًا كلما أقسمت لهم أني لا أعرف شيئًا ولم أدرِ بما فعلته. وتحت إلحاحي تطوع أحدهم بالشرح، وقال لي إني كنت كلما قاربت العربة الانقضاض عليَّ وسحقي، كنت قُبيل استوائها فوقي وسحقي تمامًا أقفز، أقفز أحيانًا وأنا واقف، وأحيانًا وأنا راقد، قفزات أبعد بها عن العربة، القفزة منها لا تقل عن عرض العربة عن ثلاثة أمتار، وليس قفزًا إلى الأمام، ولكنه قفز إلى الخلف.

وتطوَّع آخر كان يبدو أن بينه وبين الرياضة صلة بإخباري أني قمت بسلسلة من «البلانسات» الخلفية لا يمكن أن يقوم بها إلا بطل رياضي أو لاعب «أكروبات» محترف قضى عمره كله يتدرب عليها، وحتى كان من المشكوك أن ينجح فيها كلها.

وبنظري قست المسافة، وتصورت الوضع، ووجدت أني من المستحيل أن أكون قد قمت بهذه القفزات، غير أني شئت أم لم أشأ، ومهما بلغ تصوري ورفضي لهذا التصور، كان عليَّ أن أصدق أني لا بد قد قمت بها، لسبب بسيط، هو أني إذا لم أكن قد فعلت فقد كان لا بد أن تلحقني العربة وتقتلني.

وسواء صدقت أم لم أصدق، فقد كان همي أن ينتهي الموقف الذي كنت فيه محط الأبصار والأسماع والاستفسارات، وأن أغادر المكان وأبتعد عن المنطقة كلها في الحال، ما دمت قد اطمأننت إلى أن كل شيء فيَّ على ما يرام، وأني لم أصب إلا بخدوش بسيطة لا يمكن إلا أن أحمد الله عليها.

وكنت أعتقد أني حالما أبتعد، وأصل إلى البيت مثلًا، ستنتهي الحالة التي انتابتني، وأعود نفس الشخص الذي كنته قبل الحادث، وألا يصبح الأمر سوى ذكرى أرويها للناس؛ ولكن شيئًا من هذا لم يحدث؛ فقد ظللت طوال الساعات الأولى أحس وكأني لست المتحكم تمامًا في نفسي وتصرفاتي — حقيقة — لم أكن أنا الذي يتحدث أو يخترق الشارع أو يجلس على المقعد. ظللت أحس أن عقلي ليس هو القوة الوحيدة التي تملي عليَّ ما أفعله وما لا أفعله، أُحس وكأن قوة أخرى هي التي لا تزال مسيطرة؛ قوة لا يمكن أن يكون مركزها العقل وإلا لأدركتها وعرفتها؛ قوة لم أكن أدركها، كأنها نابعة من جسدي نفسه، من أطرافي وعظامي وعضلاتي، قبل أن أشرع في التفكير تكون قد تصرفت وأبعدتني؛ قوة متوجسة لا تطمئن لشيء، إذا سمعت نفير عربة اشرأبَّت، وإذا صافحت أنا شخصًا قبل أن أكون قد كونت فكرة عنه تكون هي قد انجذبت إليه أو نفرت منه، وفعلت هذا بطريقة حاسمة باترة لا يصلح فيها جدل. ولم يستغرق الأمر بضع ساعات فقط، لعدة أيام لم ينقطع إحساسي بتلك القوة المجهولة التي تملي عليَّ إرادتها. أحيانًا أحس وكأني ارتددت بضعة ملايين من السنين إلى الوراء، وعدت كتلة لحم حية تتكمش إذا سقط عليها الضوء، وتبتعد تلقائيًّا عن الأعداء والكهرباء. وأحيانًا أحس وكأني نسيت كل ما تعلمته وجربته وعرفته وكونت فكرة عنه، وعدت أرى الأشياء من حولي بفهم بدائي جدىد، وخاصية لا تعرف إلا أن تنجذب لمصادر الحياة وتتكمش عن مصادر الخطر. وعقلي طوال الوقت يعمل ولا يكف عن العمل، ويفكر ويتأمل فيما أنا فيه وفيما أعانيه، ومع هذا لا يملك إزاء ما يحدث لي تحبيذًا ولا منعًا. قلت لنفسي إنها غريزة الدفاع عن النفس وقد سيطرت عليَّ، ولكن الحادثة مضت، والخطر زال، فماذا يدعو غريزة كهذه إلى البقاء مسيطرة عليَّ؟

قلت إنه جسدي نفسه الذي تصرَّف لحظة الأزمة ونحَّى عقلي جانبًا، وبقي بعد انتهاء اللحظة كأي مستبد اعتلى كرسي الحكم، بقي يحكمني ويتحكم فيَّ. قلت لعلها الصدمة، لعلها الأزمة، لعله الأثر الساحق لما حدث، لعله اضطراب ألمَّ بي، لعلني في حاجة إلى رقاد أو إجازة أو فترة أريح فيها الأعصاب. قلت لنفسي أشياء كثيرة، دون أن أقتنع بأيها؛ فقد كان الشعور بأني كائن آخر، بأني لم أعد أبدًا نفس الشخص الذي كنته، بأن شيئًا مهولًا وافدًا قد طرأ عليَّ، وأصبح هو أنا، وأصبحت أنا إياه؛ كان هذا الشعور أقوى وأعمق من أن يفسره أي افتراض شعور مذهل غريب، جعلني حين عدت إلى البيت مثلًا وتمددت على الفراش، أتذكر أحداثًا في طفولتي كان لا يمكن أن أتذكرها، وأفكر في أشياء للمستقبل مستحيل أن كانت تخطر لي على بال، بل كدت أحس أني قد أصبحت أكثر شفافية وإدراكًا، وأن بوسعي أن أشعر بحدوث وقائع لم أعلم بها، وكأني بكلي قد تحولت إلى مجموعة من أجهزة الالتقاط الدقيقة الزائدة الحساسية التي تكاد تجعلني أحس بالنمل إذا دب، وبعواطف صديقي الغائب عني، ورأي طفلي الرضيع فيَّ.

وكما قلت لأن عقلي كان يعمل طوال الوقت؛ فقد كان هو الذي يُطمئنني، ساعة بعد ساعة، ويومًا بعد يوم، كان يُشعرني بأني شيئًا فشيئًا أعود إلى حيث كنت، وأن القوة الخفية الجبارة التي تملكتني تخف قبضتها لدى كل زمن يمضي، وأنها في الطريق إلى الزوال.

ولا أستطيع أن أضع فاصلًا حاسمًا أحدد به متى انتهت تلك الفترة، ومتى بدأت أصبح نفسي الأولى. وماذا أقول؟ هل تصدقونني إذا قلت إن ذلك الحادث الذي لم يستغرق إلا أقل من لحظة لم يذهب أثره عني تمامًا إلا بعد شهور، بل لا أستطيع أن أقسم أنها كانت شهورًا، وأيضًا لا أستطيع أن أقرر إن كنت حقًّا قد عدت تمامًا كما كنت؛ فلقد نسيت ماذا كنت وبالضبط من كنته، وهي ثانية واحدة تلك التي انقطع فيها ضوء ذاكرتي، ولكن آثار ذلك الظلام اللحظي ظلت تحيط نفسي الأولى بطبقات ضباب مستحيلة الاختراق.

وأيضًا ليس كل ما ذكرت هو المهم؛ فلو اقتصر الأمر على ما حدث لما كان مبررًا وجيهًا لأروي القصة؛ إني أرويها لكي أسجل الشيء الذي لا زلت لا أصدقه، والذي أحس كلما طلعت السماء أو هبطت الأرض لا بد لي من التسليم به وتصديقه ...

فالحقيقة لم أستطع أن أنسى الموضوع، وظل، حتى وأنا أرويه لأي مستمع جديد، يشغلني ولا أمل التفكير فيه، وأكثر من مرة أذهب إلى مكان الحادث أعاينه، وأضع علامة عند الموضع الذي انقلبت فيه العربة لأول مرة، وعلامة عند البقعة التي كنت سائرًا فيها، وأقيس مدى انقلابات العربة المتتالية، وأقيس مدى القفزات، وأحاول أن أتصور نفسي وأنا أقوم بها، وفي كل مرة أستعد لتصديق أي شيء في العالم إلا أن أصدق أني قمت بها فعلًا، بل بسلسلة منها، ولمَ لا أقول إني حاولت مرة، وقد أغلقت عليَّ باب حجرتي حتى أتفادى السخرية، أن أرقد على الأرض وأقفز إلى الخلف كما فعلت، وأني استجمعت قواي كلها؛ وبذلت جهود الجبابرة، وأكثر من عشر مرات حاولت وفي كلها فشلت، لا في القفز إلى الخلف فقط، ولكن في مجرد ثني الجزع حتى يلامس الأرض، فما بالك بإتمام القفزة ولمسافة أربعة أمتار!

وإلى الآن وأنا كلما مررت بمكان الحادث، أو أخذت في روايته، أحس حقيقة، أحس بقشعريرة، نفس القشعريرة التي كانت تتملكني وأنا طفل كلما مررت بمكان يقال عنه إنه مسكون أو إن العفاريت تظهر فيه، وأنا طبعًا لم أعد أومن بالعفاريت والقشعريرة التي أحسها تجاه نفسي، أو بالضبط حين أتصور نفسي وقد فعلت ما فعلت؛ إذ في هذه اللحظة لا أتصور أني أنا نفس الشخص الذي يروي القصة هو الذي قام بما قام به، ولكنه كائن آخر؛ قوة أخرى، قوة ماردة خارقة انتفضت من داخل ذلك الشخص، من داخلي، وجعلتني أقفز بمثل ما لم يقفز به بشر، قوة طلعت لي في لحظة، ورأيت آثارها، وأتيح لعشرات قليلة من الناس أن تراها وهي تنتفض من جسدي وتنطلق، رأي العين، قوة كالجن الخارقة القوة، كامنة فينا لا تُرى، ولكنها تستجيب إذا دعت الحاجة وتنبثق، كأختنا الموجودة تحت الأرض، كملاكنا

الحارس وشيطاننا. إني مع علمي التام أنه أنا، أنها قوَّتي، وكلها من داخلي، ولكني حين أتصور أو أتذكر ما فعلتْه وما هي قادرة على فعله، أخاف. فلومضة يضيء شيء في نفسي ويطلعني، في لمحة كالبرق، على مارد هائل خفي نمتلكه ونجهله، نحن هو ولكنه لا يخضع لطلبنا وإرادتنا، فأمره يتلقاه من الحياة مباشرة، من أصل الحياة، مارد أكبر منا ومن إدراكنا ومن كل سعينا إلى الإدراك.

ثَمة أمر جانبي نسيته. كنت عقب الحادث قد قررت قرارًا لا رجعة فيه، ألا أسرح أو أفكر أو أحلم وأنا سائر أبدًا. والحق أني نفَّذت القرار بكل دقة في أيامه الأولى، ولكن كما أن الحياة رغم كل شيء وبأي شيء لا تنقطع، إذ سرعان ما تلتئم وتتصل وتعود، عدت أنا الآخر، وأصبح القرار شيئًا فشيئًا وكأنه ما كان، كل ما في الأمر أن تأملاتي وأنا سائر كان قد أضيف إليها موضوع مؤرق جديد؛ ذلك المارد الجبار الذي بأجسادنا وبأنفسنا نخفيه.

انتهت

اختلاس زائرة

ما كاد آخرهم يخرج، ويفرغ العنبر محتوياته المكتظة كالقطار المزدحم حين يصل إلى محطة النهاية، حتى التفتت «مصمص» (وهو ليس اسم دلع ولكنه اسمها الحقيقي) إلى سكينة التفاتةً حادَّة، وقالت بصوت عالٍ: بقى اسمعي ىا ...

واحتارت قليلًا؛ هل تقول لها يا بت يا سكينة أم سكينة فقط؟! وسكينة كان اسمها سكينة، وهي سكينة فعلًا، وهو اسم قد يبدو ريفيًّا، ولكنها لم تكن ريفية النشأة أو الملامح، كانت من مدينة ما، واحدة من عشرات مدننا أنصاف الكبيرة، مؤدبة جدًّا، خجولة جدًّا، ورقيقة أيضًا. وكانت تحتل السرير المجاور لمصمص، المرأة الضخمة الكبيرة الصدر والثديين، التي يميل لونها إلى السمرة، ودائمًا ترتدي قميص نوم أبيض.

والسريران كانا في عنبر واحد من العنابر الكبيرة التي تحفل بها مستشفياتنا العامة والمركزية والجامعية والصدرية، العنبر المعهود ذي الاثنين والعشرين سريرًا، عنبر الحريم يسمونه، له تومرجية سليطة اللسان ومنفوخة الجسد، مكوَّرة كالبطة؛ وتومرجي أعمش مفروض ألا يدخل العنبر، وأن يقتصر عمله على المطبخ ودورة المياه، ولكن أحدًا لم يعلن يومًا هذا المفروض، وأحدًا لم ينفِّذه.

وكانت سكينة الضعيفة الرقيقة الحنونة، التي تحس إذا أَطَلْت النظر إليها أو عمقته أن هناك فعلًا أناسًا ضعفاء محتاجين إلى الشفقة، كانت مريضة بمرض مزمن، ولها في المستشفى ثلاثة أشهر، وأمنيتها الكبرى أن تغادره وتخرج، ولكنهم لا يخرجونها ولا يُصرحون لها بالخروج، ولا يفعلون هذا بعنف أو بحزم كما قد يعتقد البعض، إنهم يفعلونه بأنصاف الابتسامات أحيانًا، وبهز الرءوس والطبطبة أحيانًا أخرى، وأحيانًا بمجرد القول: حالًا، إن شاء الله تخرجي. أما سبب بقائها أو إبقائها، فهو أن مرضها من نوع غريب يحلو للأستاذ أن يحاضر طلبته وأطباءه

الصغار عليه، وأن يُريَه لزملائه الكبار كما لو كان يريهم قطعة نادرة ضمن مجموعة أصداف أو طوابع بريد يقتنيها.

وسكينة لم تكن مقطوعة من شجرة، كان لها إخوة، في الحقيقة أخ غير شقيق وأختان، كان لها خالات وعمات وقريبات كأي إنسان منا وكل إنسان، ولكن رغم هذا كله فلم يكن لها زوار بالمرة. طوال الأشهر الثلاثة التي مكثتهم بالمستشفى لم يزرها أحد، من يوم أن أتى بها أخوها وأودعها العنبر، لم ترَ وجهه. تلك حقيقة تعرفها هي، ويعرفها الجميع، حتى التومرجية السليطة اللسان تعرفها. وقد كانت مشكلة الخروج تُلح على سكينة في أحيان كشيء لا بد منه ولا بد من حدوثه، ولا بد أن تكلم الطبيب الكبير بشأنه، ولكن مشكلتها الأكثر حدة في الواقع أن يزورها أحد، أن تغمض عينيها وتفتحهما فتجد يدًا توقظها من النوم أو الغفوة وتقول لها: قومي يا سكينة، جالك زوار.

طوال أيام الجُمع والاثنين، والحقيقة طوال أيام الأسبوع، يفد العشرات والمئات والآلاف على المستشفى، ويوزَّعون على عنابره ثم على أسرَّته، وقد يخص كلَّ سرير زائر أو خمسة أو عشرة ... سريرها هي لم يكن يهوب ناحيته أحد، أو للدقة كان زوار جاراتها يتخذون سريرها كأريكة يجلسون عليها وهي من خجلها لا تعترض أو تأتي بحركة تُسبب حرجًا لأحد، كانت تغادر الفراش نهائيًّا، وتذهب تتمشى في الطرقة أو تخرج إلى شرفة العنبر القذرة هناك، حيث تُتخذ مستودعًا لأكوام الزبالة وقشر البرتقال والموز واليوسفندي الآتي لا بد مع كل زيارة.

وهناك، في تمشيها هذا، كانت سكينة تحزن وتنقبض وتحس أنها مظلومة، وأنْ لا بد ثَمة خطأ في الكون جعلها تبقى بغير زوار، وأن أخاها باستطاعته أن يخطئ مرة ويزورها. وكم زارت هي إخوتها وبنات خالاتها، وكان واجبهم في هذه الحالة أن يردوا الزيارة. ماذا حدث حتى جمَّد قلوبهم وقسَّاها؟ ماذا حدث حتى نسيها الجميع هكذا ونسوا أنها في المستشفى؟ ماذا حدث حتى تنقطع صلتها هكذا بعائلتها

وأقربائها وحتى بصديقتها وبالدنيا كلها؟ لم تكن تدري! حتى مجرد إرسال خطاب، ما أرسل لها أحد خطابًا أو بعث بسلام.

إحساس لم يكن يشاركها فيه أحد. كانت أعمق أعماق قلبها هي التي تكتئب وتحزن فقط، أما كل ما على السطح من وجه وملامح، فقد كان يلتف دائمًا بابتسامة لا فرق بينها وبين مئزر الصوف الذي تتلفع به.

وطالت المدة ثلاثة أشهر وأربعة وخمسة، والمرضى يتغير معظمهم حتى لم يبقَ من القدامى سوى جارتها مصمص، والوضع على ما هو عليه، وضع عجيب غريب. فهي صحيح ضيِّقة بالمستشفى والبقاء فيه، تريد بشق النفس أن تخرج وتغادره، ولكنها في نفس الوقت، وإذا ما سألت نفسها، لم تعرف أبدًا لمَ وإلى أين تذهب، وماذا بالضبط ستفعل. لقد كانت قبل دخولها تحيا مع أخيها تخدمه في انتظار أن يتزوج هو أو يأتيها هي عريس، ولكنها مرضت، وكانت تقضي الليل كله تنهج وتكح حتى ضاق بها الأخ، وانتهز أول فرصة وأدخلها المستشفى ربما كي لا تعالج بقدر ما يتخلص منها ومن حشرجات أنفاسها، بل إنها سمعت أنه بعد دخولها المستشفى تزوج وعزل من البيت. وشقيقاتها كلهن متزوجات، وهي ليست جميلة حتى يرحب ها زوج أي أخت، بل لقد ذبلت وكبرت حتى على الزواج فإلى من تذهب وإلى أين؟

وضع عجيب غريب، فهي ضيقة بالمستشفى ضيقًا لا حد له ومستسلمة لهذا الضيق والحياة في المستشفى استسلامًا لا حد له أيضًا، كالسجين الذي يتوق إلى الخروج من السجن إلى الحياة والحرية، ولكنه حين يجد أنه إذا خرج فلن يعرف ماذا ولا كيف يفعل بحريته تلك، يستسلم للسجن. يضيق به ويستسلم له ويكاد يُجن بين الضغطين.

ولم تأتِ المسألة فجأة، بل وإلى الآن لم تفكر فيها سكينة تفكيرًا جديًّا أو تدبرت ما فعلت، ولكنها هكذا جاءت. مصمص كانت زوجة أحد المعلمين الكبار الذين لا يقل عدد أقربائهم وأنسبائهم وأولادهم ونسائهم وبناتهم عن المئات بأي حال من

الأحوال؛ ولهذا كان لا يمر يوم دون أن يزور مصمص لا أقل من خمسة أو ستة زوار، ويوم العطلات والأعياد يرتفع الرقم حتى يكاد يصل إلى الخمسين. وكان يبدو على مصمص أنها في الوقت الذي تعتب فيه على فلانة الفلانية لأنها لم تزرها، ما يكاد الزوار يغادرونها حتى تلهث تعبًا، وحتى تغمغم ببرطمة لا يُفهم منها سوى الضيق الشديد بالزيارة والزوار، والمسألة بدأت بأن راحت سكينة تسأل مصمص عن الزوار إذا قدموا، من هم وما هي درجة قرباهم لها، وماذا يشتغلون، ولم يكن الأمر مجرد سؤال. دأبت سكينة على ملاحظتهم بدقة ومعرفتهم بالاسم حتى لتطفح السعادة من وجهها حين تقول لمصمص بعد خروج زائر: مش ده كان مصطفى ابن خالتك اللي بيشتغل في السكة الحديد؟

فتُبهت مصمص وتقول: الله! وانتي إيه اللي عرفك؟

حينئذٍ تحس سكينة الناحلة الهادئة الساكنة بسعادة داخلية لا حد لها، غير معقول بالمرة أو مقبول؛ فقد أصبحت لمجرد أنها عرفت مَن الزائر وخمنته وجاء تخمينها بالضبط مطابقًا للحقيقة.

ولكن هذه السعادة، بالتكرار، لم تعد تحدث، ووجدت سكينة نفسها مدفوعة إلى خطوة أخرى كي تحس بنفس سعادتها السابقة؛ فبدأت تقدم مساعدات، وتسرع مثلًا وتحضر كراسي لزوار مصمص، أو إذا أرادت الأخيرة أن تعزم عليهم بالقهوة أو الشاي أو القازوزة أسرعت سكينة إلى البوفيه، وتحضر الطلبات بنفسها. وكانت مصمص تأخذ الأمر في أوله باعتبار أنه نوع من الطيبة من سكينة لا أكثر، ولكنها بدأت تعجب فعلًا وقد راحت سكينة تقوم بأعمال غير معقولة أبدًا؛ تأخذ الأطفال من الأمهات الزائرات وتداديهم أو تذهب بهم إلى دورة المياه، وتلعب مع الأبناء الكبار، وتقول لهذا الزائر: والنبي وحياتك إبقى سلم لي على فلانة وفلان. وكأنهم أقرباؤها هي.

بدأت مصمص تستعجب، مصمص لم تكن سهلة ولا طيبة ولا مسكينة أبدًا، إنها جهنم الحمراء إذا انفتحت وإذا رأت في الأمر ما يريب. وكانت سكينة قد زودتها

في نظرها كثيرًا وبشكل أصبح لا تفسير له ولا تبرير، تجلس مع الأقرباء والأصهار طوال الزيارة ولا تغادرهم للحظة، وكأنها منهم وعليهم، يتحدثون عن أدق أمورهم العائلية الخاصة فلا تخجل ولا تبتعد، بل أكثر من هذا، تهتم بها وتناقشها مناقشة المتحمس الغيور، وتبدي الآراء أيضًا، وتنتظر مصمص على أحر من الجمر أن تحس سكينة مرة فتقوم أو تغادر الفراش، أو على الأقل تولي انتباهها إلى الناحية الأخرى بلا فائدة، إذ كانت سكينة لا تفعل شيئًا من هذا أبدًا، بل تظل طوال الجلسة بأكملها وبعد الجلسة أيضًا تتحدث وتُعقب وتحاول أن تدخل مع مصمص في أخص الشئون وفي الغويط، ومصمص تكظم وتكظم، فصحيح أن سكينة تتدخل ولكنها تفعل هذا وهي راقدة في نفس فراشها لا تغادره، وبالعكس إن زوارها هم الذين يجلسون على فراش سكينة؛ وبهذا يعطونها الفرصة للاندماج والتدخل.

بل تطوَّر الأمر إلى ما هو أكثر، وبدأت سكينة تقتنص زائرًا أو زائرة من الجالسين على فراشها، وتنخرط في حديث لا ينقطع معه أو معها، بحيث تنتهي الزيارة وهم لم يتبادلوا كلمة واحدة مع قريبتهم مصمص، وكأنهم جاءوا لزيارة سكينة أصلًا.

ولقد تكرر الأمر مرة ومرة ومصمص صابرة تكظم إلى أن كان هذا اليوم الذي قررت أن تنفجر، وهكذا ما كاد آخر زائر في يوم الزيارة يخرج ويفرغ العنبر محتوياته المكتظة كقطار وصل إلى محطة النهاية، حتى التفتت مصمص إلى سكينة التفاتةً حادة، وقالت بصوت بالغ العلو: بقى اسمعي ىا ...

واحتارت قليلًا؛ أتَقْطع العشم والعلاقة والعيش والملح مرة واحدة وتقول يا بت يا سكينة، أم تكتفي بنهرها وتقول يا سكينة فقط؟! فإذا قالت لها يا سكينة فكيف تستطيع أن تصبَّ علىها بهذه البداية ما يتفجر به صدرها الضخم العالي الأسمر من غضب وضيق؟ احتارت مصمص، وكالبندقية صوبت عينيها إلى سكينة وكأنما لتزىد برؤىتها لها جرأتها وعنف انفجارها. كانت قد قررت أن توقفها عند حدها،

وأن تتذرها بأنها إذا استمرت في اقتناص زائر أو أكثر من زوارها هكذا، فسوف تمرمط الأرض بزوارها، زوار سكينة إذا جاءوا، والعين بالعين، والسن بالسن، والبادي أظلم.

صوبت مصمص عىنيها إلى سكينة لتجدها راقدة في سريرها نصف مغطاة الجسد، تحملق أمامها كمن يجترُّ ذكرى لحفلة سعيدة مرت. وفجأة اكتشفت مصمص الجهنمية أن تهديدها الذي يكاد يفلت من فمها لا معنى له بالمرة. أجل هكذا. في ومضة مفاجئة اكتشفت مصمص أن سكينة لا يأتيها زوار ولا ينتظر أن يأتيها أحد. وهكذا بعد أن كانت قد استدارت واستدار السرير لاستدارتها وقالت: بقى اسمعي ىا ...

وحين التفتت سكينة بدهشة ونوع من الذعر تسأل: نعم يا ست مصمص. لم تغير مصمص رقدتها، ولا رفعت عينيها عن وجه سكينة. كل ما في الأمر أن صوتها انخفض فجأة حتى كاد لا يُسمع، وقالت: لا، ولا حاجة، ده كلمة كده وعدت.

قالت هذا وهي ترمق الفتاة بعينين مشتَّتين فوق وجهها، يكاد يطفر منهما الدمع. وظلت مثبِّتةً عينيها فوق وجه سكينة لا ترفعهما وكأنها تراها لأول مرة؛ رفيعة نحيلة مقطوعة من شجرة.

انتهت

من المخلصة جدًّا

كان صلاح زوجًا، وكانت له ابتسامة، ليست كالابتسامات الحية تولد طفلة طازجة وتتفتح فجأة على الوجه ثم تزول، ابتسامة كانت لا تظهر ولا تختفي ولا تولد أو تموت، ولكنها محنطة على وجهه كالمومياء. وكانت بالضبط تُعبر عن حياته؛ فهو الآخر يحيا كالمومياء المحنطة، أو على الأقل كان هذا رأيه في نفسه، فهو زوج، وهو كمعظم الأزواج ساخط على الزواج يحس أن حياته المملة الرتيبة تقتله وتميت فيه الحياة بالتدريج.

ولهذا كانت أمانيه.

وهز رأسه وحسراتٌ كثيرة تتبعثر من فمه ومن قلبه. مستحيل! كيف يحتفل بعيد زواجه من روحية؟ وكيف يهديها شيئًا هي التي لم تفكر في إهدائه إلا الكلمات السامة المنتقاة، والسخطات التي لا رحمة فيها ولا عاطفة.

وهكذا لم تطل حسراته، فقد أعاد العشرة جنيهات إلى الخزانة وأغلق أدراجه، وكان موعد الانصراف قد حان، فأخذ طريقه إلى الباب، والشارع، ومن ثَم إلى البيت، وهو يحس بمغص حادٍّ ينتاب قلبه، ومرارة تملأ نفسه، وكأنه ذاهب لقضاء بقية اليوم في السجن المؤبد الذي عليه أن يقضي بقية عمره فيه.

ولكنه طوال الطريق كان يفكر في الورقة ذات العشرة جنيهات، والإهداء الذي كتبه عليها، ويقول لنفسه: نعم ... لا بد أن هناك حياة أخرى ... حياة مليئة بالهدايا، والحفلات، والبسمات.

ومع أنه كان فاقد الأمل في حياته تلك وزوجته إلا أنه لم يمنع نفسه من تمني شيء؛ أن تكون روحية قد تذكرت المناسبة وأعدَّت له مفاجأة، أو على الأقل استعدت لتحتفل بالعيد.

غير أن المفاجأة التي كانت تنتظره، أنه لم يفاجأ بجديد. فما إن فتح الباب حتى طالعه صراخ الأولاد، وحتى طالعته روحية نفسها واقفة في وسط الصالة وشعرها واقف أيضًا، وهي تحاول أن تضرب ابنه الأصغر، والولد يصرخ، وهي تصرخ، والجدران تتهاوى وتستغيث، والأبواب تتخبط، ورائحة القلي والطبيخ تتصاعد كالغازات السامة والمدرة لليأس والكآبة، والأطفال يتعلقون برجليه ويتعثر في أرجلهم، وألف مشكلة وكارثة ومطالبة لا بد تنتظره.

إنها خانقة، تلك الحياة وتلك الزوجة.

ألا تعرف ما هو اليوم؟

أجل، اليوم، اليوم يوم عشرة واللبَّان لم يأخذ نقوده، وبائع الثلج والأولاد جننوني ولا شيء آخر! لا شيء إلا الهم والغم والدروس التي يجب أن تأخذها بنتك قبل الامتحان لتنجح. إنه يكرهها. إنها لم تعد يشتهيها، ولا حتى صديقة يأنس إليها. ما الذي يربطه بها وكل ما بينهما حرب مستعرة مستمرة وخلاف يتجدد في كل ثانية؟ كل يوم يفكر عشر مرات في طلاقها أو الانتحار، وكل يوم لا يطلقها ولا ينتحر. وكل يوم يفكر في حياة جديدة وزواج جديد، وكل يوم لا ينفذ حرفًا واحدًا من القرارات الحازمة الباترة التي اتخذها. كل يوم يفكر حتى في خيانتها، وكل يوم لا يخونها. ما الذي يربطه بها؟ حتى الأولاد، إنه يكرههم من أجلها، ويكرهها أكثر من أجلها، ومع هذا لا يتركهم جميعًا و«يهج»، ولا يتركونه. ما الذي يُبقي هذه العائلة السخيفة متماسكة، وكل ما فيها يتنافر مع كل ما فيها؟ الخلاف البسيط يؤدي إلى نقار، والنقار إلى شجار، ثم يتطور الأمر ويغادر المنزل غاضبًا. وحين يصل السلالم تخرج الزوجة وتقطع الشجار وتقول: إياك تنسى تشتري البزازة!

ويخرج وهو مصمم على ألا يعود بله أن يشتري البزازة. ولكنه ما إن يلمح أجزخانة حتى يتوقف، ثم يتصور خيبة أملها حين يعود بلا بزازة، فيدخل ويشتريها.

لماذا يشتريها؟ ولماذا وكل ما بينهما حرب يراعي شعورها، وتراعي أحيانًا شعوره؟ ما كنه تلك العلاقة الغريبة التي تجمعهما؟ لماذا يستسلم لتلك الحياة؟ لماذا لا يبدأ حياة جديدة؟ لماذا لا يبدؤها فورًا والآن؟

ولكنه لم يبدأ شيئًا أبدًا، فقد دخل كالعادة، وحل بعض المشكلات وعقَّد بعضها، وتُبودلت بضع زغرات وتلميحات وشتائم، وتغدى، وكالعادة نام، وحين استيقظ بعد الظهر كان قد نسي كل شيء عن ١٠ مايو وعيد زواجه، والعشرة جنيهات وكلماته المكتوبة فوقها بخط أنيق.

* * *

ومرت الأيام وهو لا يحس بمرورها. فمن يوم أن تزوج لم يعد يحس بالزمن، وكأنما فقد ذاكرته حتى إنه لا يذكر ماهية نفسه قبل الزواج، وكأنما وعى فوجد نفسه زوجًا.

مرت الأيام وهو دائب الإحساس أنه يذوب ويذوب، ويفقد ذاته ونفسه، حتى فوجئ ذات يوم بشيء استغرب له جدًّا.

كان يفحص مبلغًا واردًا إلى البنك، وإذا به يعثر على ورقة من ذات العشرة جنيهات مكتوب على دائرتها البيضاء: إلى زوجتي العزيزة ... بمناسبة عيد زواجنا الخامس. ولم يكن الخط خطه.

واحتجز الورقة وظل يقرؤها ويضحك من أعماقه.

كان أحدهم لا ريب قد ساقت إليه الصدف الورقة التي كُتب عليها الإهداء، فظن أن أزواجًا صالحين يهدون زوجاتهم أوراقًا كتلك في أعياد زواجهم، ففعل مثلهم، وكانت النتيجة هذه الورقة. ظل يضحك ويلعن الزوج المغفل الذي صدق النكتة. وبعد أن انقشعت موجات ضحكه أحس بشيء قليل من الندم؛ فقد أدرك أنه بطريقة أو بأخرى قد خدع ذلك الزوج، وأنه قطعًا مسئول إلى حد ما عن تلك الخديعة.

* * *

غير أنه بمرور الأيام تضاعف ضحكه وتضاعف تأنيبه لنفسه؛ فقد تبين أنه لم يضحك على زوج واحد فقط، ولكنه خدع كثيرين؛ فقد وجد إهداءات كثيرة مكتوبة على أوراق بنكنوت من ذوات العشرة والخمسة والخمسين، وأحيانًا المائة. ولم يعد يستطيع كتمان الأمر عن زملائه، فأطلعهم على الأوراق وحكى لهم القصة وهو لا يتمالك نفسه. وطبعًا ضحك الزملاء كثيرًا، وتبادلوا الضربات على الأكتاف، وقال أحدهم إن أعظم زيجة في العالم لا تساوي قرش صاغ واحدًا، فما بالك بعشرة أو بخمسة أو بخمسين جنيهًا؟

وأصبحت المسألة مصدرًا لا ينضب للضحك، فما يكاد يرد إلى صلاح ورقة عليها إهداء حتى يشير بالورقة إلى زملائه من بعيد وكأنما يقول: وآدي مغفل جديد!

ولكن عدد المغفلين كثر بشكل أفقد المسألة ما كانت تثيره من ضحكات، بل كثر بشكل أزعج صلاح نفسه، لقد قرأ يومًا إهداءً وكان موجهًا من زوجة إلى زوجها.

وأصبح تأنيب الضمير على الخدعة التي ابتكرها لا يكفي، أصبح لا بد من التفكير، ما هي حكاية هؤلاء الناس؟ وهل هي مجرد محاكاة لما فعله، أم لا بد أن في المسألة سرًّا خطيرًا لا يدريه؟

وكان عليه لكي يكشف السر، إن كان هناك سر، أن يجرب ... وبهرته الفكرة، وأحس لها بحماس.

* * *

كان يوم ١٠ مايو قد اقترب، وعام جديد قد أضيف إلى عمر زواجه، فلماذا لا يفعلها ويجرب؟

أجل، فليجربها في عشرة جنيهات. ولكن تفكيره ما إن حوم حول الرقم حتى هبط حماسه في التو. عشرة جنيهات؟! إنها تكاد تبلغ ثلث مرتبه أو نصفه. إذا كان لا بد من التجربة فليجربها في جنيه مثلًا، ولكن، أيصح أن يهدي زوجته جنيهًا

واحدًا في عيد زواجها؟ المسألة حتى من الناحية الشكلية محرجة، ولكنه إذا نظر إليها من الناحية الأخرى فإنه لا يمكنه أن يهديها عشرة جنيهات مرة واحدة، فهو لا يهدي زوجته، إنه يهدي غريمه. فلتكن خمسة إذن. تكفي خمسة ... إنها كافية جدًّا.

وهكذا جاء يوم ١٠ مايو، وجاءت الساعة الثامنة منه، وصلاح عائد إلى البيت وفي جيبه الورقة والإهداء على دائرتها البيضاء، حبره لم يجف بعد، وكل ما يحسه هو الفرحة لأنه مقبل، في حياة قاتلة الملل، على تجربة جديدة، وحب استطلاعه يكاد يطل من عينيه؛ إذ تُرى ماذا ستفعل روحية، وهل يُغمى عليها؟!

* * *

وكالعادة فتح الباب، وواجهه سوق «القـ... »[1] روض الفرج المعتاد، وبعد أن تم الغذاء والحساب والعتاب، ناداها على حدة في غرفة النوم. ومع هذا أصرَّ ابنه المتوسط على عدم مغادرة الحجرة، وأمسك بروب أمه واستمات عليه. وقال صلاح يتعثر نصف ساعة في كلمات لا معنى لها، ثم أخرج الورقة ذات الخمسة جنيهات، ووضع الدائرة البيضاء أمام عينيها لترى الإهداء.

وبدت الصدمة واضحة على ملامحها، وظلت واقفة في مكانها لا تتحرك، كان لسانها أول ما تحرك فيها، وأول ما فعله اللسان، أن فتح له محضرًا طويلًا عريضًا، وراحت تسأله وتضيق عليه الخناق لتعرف من أين جاء بالخمسة جنيهات، وميزانيته كلها تعرفها بالمليم والصلدي، وقال لها إنه استلفها لتخصم على شهرين من مرتبه. ومعنى هذا أن ينقص إيرادهم في الشهرين القادمين. وهكذا شبَّت النار، وبعد لحظات قصار أصبح الحديث اتهامات متبادلة، وشتائم وتهديدات، وأيمانات مغلظة، خرج على أثرها صلاح من الحجرة غاضبًا لاعنًا تاركًا الجنيهات الخمسة تنعى من أهداها.

وجلس في الصالة يغلي وينفخ ... لا فائدة على الإطلاق. إنها حرب لا هوادة فيها. إنه عسكري في جيش وليس زوجًا في بيت. إنه لا عمل له إلا الدفاع عن نفسه، والحرب أذابته وهدَّته وأتت عليه، حتى العسكري يحظى بهدنة وراحة، أما هو فمعركته لا تتوقف.

وبينما هو يغلي وينفخ، كان عقله يعمل ويحلم، أجل، لا بد أن هناك حياة غير تلك، حياة رحبة، لا قتال فيها ولا خناق ولا ملل، حياة مليئة بالبريق وبالرائع الجديد، ولا ينقصها سوى الجريء الذي ينهي حياته وجبنه وينطلق إليها.

وبوغت حقًّا حين رأى روحية قد خرجت من حجرة النوم ووقفت قبالته على بابها لا تتحرك والورقة في يدها، ورمقها وهو يلعنها. لا بد أنها الآن اطمأنت أن الجنيهات الخمسة لم تضع، وأنها على أية حال باقية في البيت. ولكيلا يلعنها، فقد أصبح يضايقه حتى أن يلعنها، حوَّل وجهه عنها.

غير أنها سألته وهي واقفة من بعيد إن كان جادًّا حقًّا في كلامه وإهدائه. وطبعًا زفر ولم يجب. ولكنها ظلت تلاحقه بالسؤال. ولأنه يعرف أنها إن صممت على شيء فلا بد أن تعرفه ولو فرقعت مرارته وحطمت رأسه، فلكي يخلص منها قال لها: أيوه يا ستي هدية بحق وحقيق ... بمناسبة عيد الزفت الزواج.

وفوجئ حين وجدها تنخرط فجأة ... لا ليس فجأة ... فقد حدثت في وجهها تغيرات متوالية مضحكة وانقباضات وانبساطات وتجعيدات، ثم انخرطت في بكاء ضاحك، تضحك وتبكي، وتبكي وتضحك، وشعرها منكوش، وروبها مفتوح، والولد لا يغادر مكانه بين ساقيها.

وأخيرًا قالت إنها قد أعدت له هدية هي الأخرى. إيه يا ستي؟ وناولته الورقة. وتحت إهدائه وجدها قد كتبت: إلى زوجي العزيز الغالي المحب بمناسبة قراننا ... من المخلصة جدًّا زوجتك.

وفرَّت الدموع في الحال من عينيه. لا لأن ما كتبته كان غريبًا، ولكن لأنه صدر منها وبخطها. ما أروع كلماتها! إلى زوجي العزيز الغالي، حتى أخطاؤها الإملائية، حتى إمضاؤها، حتى طريقتها الساذجة في التعبير عن نفسها، ولو كانت أجمل امرأة في العالم هي التي كتبت له هذا لما بدا أروع من كلمات روحية، روحية ذات الخرابيش والصوت الحاد اللافح، إنه شيء لا يحتمل، أبدًا لا يحتمل.

وأخذها على كتفه وقبَّلها. واحمرَّ وجهها جدًّا وهي تقبله، ربما كانت هي أولى قبلاتها له. وربَّت على كتفها وربتت على ظهره، وبكيا، وتعانقا وكما يضيء البرق فجأة تزاحمت الخواطر في عقله. إن حياته معها كره في كره، وخلاف في خلاف، ومواقع إثر مواقع، هذا صحيح؛ ليلة أن صفعها مثلًا وخربشته بأظافرها وتدشدش طقم الشاي، ليلة أن اختلفا حول اسم تامر، ليلة أن اصطدمت بالمرحومة أمه، ألف ليلة وليلة من الألم القاسي الممض.

العجيب أنه لا يحس شيئًا من هذا الآن، وكأن الألم في حينه يصبح ذكرى بعد حينه؛ فكل ما يحسه الآن أنه كان شابًّا وأنها كانت صغيرة، وأنهما كانا طائشين، وما أعذب الطيش حين تمضي أيامه ويصبح مجرد لحظات تستعاد. إن الخلاف ينفِّر، ولكن العجيب أن خلافاتهما كانت تقرِّبهما أكثر. والخلاف يقولون إنه يخرب البيوت، والخلاف عمَّر بيته؛ فقد كان لهما حجرة واحدة، والآن عندهما ثلاث؛ ولم يكن هناك أولاد، والآن لهما أربعة؛ وحين تزوجها لم يكن معه إلا التوجيهية، والآن معه البكالوريوس؛ وهي تزوجته وهي مدللة لا تعرف سوى قلي البيض وتخطيط الحواجب، والآن بشهادته أمهر خياطة وطباخة، وكانت بالكاد لا تقرأ إلا «حواء» لتعرف الموضة، وهي الآن تناقشه في السياسة وتبزه، تلك التي يعتبر نفسه ضليعًا فيها.

ألف خاطر عنَّ له، لو كان قد تزوج مطيعة لا ترفض له رغبة أو طلبًا لما تحرك من مكانه وموضعه، ولما تحركت هي الأخرى. إنه مغفل. أيكون ما يعيش فيه هو سعادة الواقع وهو لا يدري؟ إنه كان يفكر دائمًا كأحد طرفَي الخلاف، ولكنه

أبدًا لم يفكر كزوج لا بد له زوجة، ولا تتم سعادتهما إلا معًا، ولا يسعد الشخصان معًا إلا إذا اقتربا، ولأنهما إنسانان وشخصيتان فإنهما إذا اقتربا احتكَّا واختلفا، ونتج عن احتكاكهما موجات من الرضا والغضب والسخط والألفة والحب والكره.

أتكون هذه الموجات هي بنفسها السعادة التي طال سمعه عنها؟

أتكون كالشرر لا يحدث إلا إذا طُرق الحديد بالحديد والحجر بالحجر؟

تلك المرأة التي يضمها بين يديه الآن، رفيقة العمر، التي صاحبته لحظة بلحظة وساعة بساعة، لا بد أنها كانت تقاسي مثله، وكانت تكرهه مثلما يكرهها، وتحملته مثلما تحملها، وكل ذلك قد مضى، ويمضي، ويصبح ذكريات أهم ما فيها أنها مرت، وطعمها الآن من طعم عصير الموالح ألذ وأطيب وأمتع طعم. إنها الآن بين يديه ضعيفة، مستسلمة، قد أسعدتها هديته البسيطة إلى درجة البكاء والنشوة.

ألف خاطر وخاطر، وعاطفة قوية مبهمة تتفجر في نفسه، وإعزاز غريب مفاجئ لروحية، يكتشف أنه يملأ صدره. أيكون كل ما كان بينهما من خلاف وتعنُّت وكره هو الحب، الحب الأكبر؟ أكان من حمقه يحلم بالحياة السعيدة الأخرى والحياة الأخرى هو فيها، ويفكر في الهجرة إلى دنيا جديدة وهو يغمض عينيه عن دنيا الحقيقة الجديدة، ويقول إن إنهاء حياته الخاملة تلك في حاجة إلى شجاعة، والشجاعة هي أن يتقبل حياته هذه، ويؤمن أن روحية زوجته والأولاد أولاده والبيت بيته، وهو دعامته والمسئول عنه؟

ألف خاطر وخاطر، وهما واقفان، بين دهشة الأولاد، متعانقان وكأنهما كانا غائبين لعشر سنوات مضت، وكل هذا بغلطه، بلغته، بنكته، بكلمات قليلة على ورقة.

* * *

ولم تكفَّ أوراق البنكنوت ذات الإهداءات عن الورود لصلاح مكتوبة على أوراق من فئة العشرة والخمسة والجنيه والخمسين قرشًا في بعض الأحيان. وكلما

قرأ صلاح الإهداء وتأمل اللحظة التي لا بد سبقته واللحظة التي أعقبته، كانت سعادة غامرة تملأ جوانحه، وكأنه قد اخترع اختراعًا للسعادة البشرية أو اكتشف اكتشافًا، ولفرط سعادته باكتشافه حاول ذات يوم أن يبدأ في عد الأوراق ذات الإهداءات لىعرف كم من السعادات تسبب فيها وأحدثها.

ولا يزال صلاح إلى الآن يعد، ويبدو أنه لن يتوصل أبدًا إلى معرفة الرقم الصحيح؛ فالأوراق لم تكن أبدًا عن الورود.

انتهت

---

[1] الكلمة غير مُكتملة في الملف الأصلي. (الناشر)

الفـــــهـــــرس

المارد
اختلاس زائرة
من المخلصة جدًّا